

## شعبوية دينية رسمية تغزو الجزائر

إضفاء مسحة دينية على الخطاب السياسي ليستحسنه الإسلاميون



وقائع كثيرة حدثت في الجزائر ذات صلة بالتقاليد الاجتماعية والدينية في شهر رمضان، ودلت على وجود شعبية دينية عميقة تتبناها السلطة والنخب، وتخفي وراء مظاهرها وتعبيراتها أصولية غائرة تحول دون تكريس الدولة المدنية التي يتساوى أمامها كل المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والطائفية.

حميد زنار  
كاتب جزائري

في تسجيل فيديو منتشر على مواقع التواصل الاجتماعي نستمتع إلى شخص في مدينة عنابة، شرق الجزائر، يسجل نفسه في سيارته وهو يهتف إلى مصلحة الأمن الحضري ليخبر رجل الشرطة أن في شارع من شوارع المدينة مجموعة من الشبان يغطون نهاراً في رمضان. ونلاحظ استجابة صوت الشرطي بطريقة عفوية جداً، وكان في الأمر جريمة ويشكر المخبر المتطوع شكراً جزيلاً ويمدحه. ويصور "المخبر الغيور على دينه" قدام رجال الشرطة معبراً عن فرحته وهم يقبضون على الشبان كأنهم ارتكبوا جرماً عظيماً. وليس هذا فحسب بل نشاهد الشرطي يركل أحد الشبان وهو يدفعه داخل السيارة.

اعتبر العشرات من المعلقين على الفيديو أن عمل صاحب الفيديو يندرج تحت ما يسمى بـ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وكلهم مبتهجون بسلك الشرطة تجاه هؤلاء الشبان، وبطالون بالزيد من الصرامة وتشديد العقوبات ومنهم من راح يدعو إلى قتلهم صراحة. يكتب روني جيرار في كتابه "كبش الفداء"، "حينما يصل مجتمع إلى أوج أزمته وتتحل الروابط الإنسانية، يتجه الأفراد حتماً إما إلى إيداع المجتمع بأسره وهو أمر لا يلزمهم بشيء، وإما إيداع أفراد آخرين يبدون لهم جذ صائبين، ويتهم هؤلاء المشوهون بتهمة من نوع خاص". في كل عام تطرح مسألة حرية الإفطار في رمضان ويستند الجدل بين المؤيدين وغير المؤيدين لتجريم من يغط علناً في الفضاء العمومي. وفي كل شهر صيام يتم توقيع بعض الشبان والشابات وجرمهن إلى الحياض وإصدار أحكام بالسجن النافذ في حقهن، ثم ينتهي الأمر في انتظار رمضان الذي يلي وهكذا دواليك. من العجيب أن نشاهد هذا البؤس بعد الانتفاضة التي عاشتها الجزائر طيلة أكثر من عام والأمل الذي ترك ذلك الانتفاخ الكبير الذي بدأ بعد 22 فبراير 2019.

وحتى وإن وجد نص قانوني صريح يجرم الإفطار في رمضان فهو قانون ينغى إلغائه لأن الصوم طقس ديني وليس قانوناً يجب أن يلتزم به جميع الناس ويظهرون ذلك الالتزام في الفضاء العمومي حتى وإن كانوا غير صائمين. هو خاص بالمواطنين المؤمنين الذين يريدون الصوم فقط لا بكل المواطنين، فضلاً عن كون الفضاء العمومي ليس ملكية المؤمنين بل ملكية المواطنين جميعاً. ومن ثمة فليس من الاستفزاز في شيء أن يمارس الفرد حرمة في الفضاء العام كان يغط نهاراً في رمضان أو يبدي امتناعه عن الأكل أو يصلي في حديقة عامة.

وحتى وإن تعلق الأمر بدول ينص دستورها على أن دينها هو الإسلام، فهل من العدل أن يعامل مواطنون مختلفون مع الجماعة بتهمة ثقافية مصاغة في مفهوم فضاض غير محدد قابل لتأويلات كثيرة؟ ما معنى "الإخلال بالأداب العامة"؟ وما معنى "الاستفزاز"؟ هل احترام ما يسمى بـ "الأداب العامة" هو وجوب

خضوع الفرد للجماعة كخضوع النعجة في القطيع؟ ألا تخفى الأصولية تحت غطاء هذا المفهوم الفضفاض الذي يمكن أن نضع فيه كل ما نريد لتكبير الأفراد وتكبير الأقواء وفرض ما يسمى شريعة؟

الشعبوية الدينية الرسمية المستشرية في الجزائر تدل على أن المجتمع الجزائري لم يبق باب الدولة المدنية الحديثة

ولننلاحظنا إرادة واضحة في تدوين الخطاب السياسي لدى الرئيس عبدالمجيد تبون وكل الوزراء عن طريق استعمال العبارات الدينية التي يستحسنها العوام والإسلاميون من أجل استمالتهم وإبعادهم عن الحراك، فإن وزير الشؤون الدينية والأوقاف

## فضاء عمومي محتكر من قبل الأحادية الدينية

النساء دعوى أن مرور المرأة أمام المصلي تقطع صلاته كالكلب والحمار. فهل من مهام الشرطة تطبيق قوانين الجمهورية وتنظيم الحركة في المدينة، أم تطبيق ما يسمى الشريعة والتميز ضد المرأة؟ إنها ظواهر متفرقة ولكن يجمعها قاسم مشترك هو الشعبوية الدينية الرسمية المستشرية في الجزائر والتي تدل على أن المجتمع الجزائري لم يحسم بعد مسألة الحريات الفردية ولم يبق باب الدولة الحديثة بعد، إذ لا يزال بعيداً عن فكرة التسامح بل لا تزال الأحادية الدينية متجذرة فيه بسبب تضاريف أنوار المدرسة والإعلام ومؤسسات الدولة مجتمعة.

ولم تطرح السلطة الجزائرية ولا النخب الأسئلة الجوهرية الضرورية التي يجب أن تطرح لتجاوز الفكر الأصولي: هل يمكن إقامة ديمقراطية سياسية دون إمكانية الاختلاف في مجال الفكر والعقيدة؟ هل يجب أن يكون للدولة دين؟ وهل الديمقراطية وسيلة لحماية الأقليات، أم لتكريس تقوى الأغليات؟

أن تختلف مع ولي الأمر. ولجنة الفتوى هي وصاية من ولي الأمر، وضعتها الدولة لتجمع رأي الناس". فهل الجزائر دولة على رأسها رئيس أم سلطنة يحكمها ولي أمر؟ هل الجزائريون مواطنون أم عابدين؟ هل يريد وزير الشؤون الدينية والأوقاف العودة بالبلد، تحت ذريعة طاعة ولي الأمر، إلى عهد الاستعمار العثماني؟ يجب الإعلامي والشاعر عادل صياد على كل هذه الأسئلة في جملة مقتضبة موجهة إلى الوزير كاتباً على صفحته في فيسبوك "بما أنك قاصر، فمن حقك اعتباره ولي أمر، لكن الأمر لا ينطبق على الراشدين".

من العادات الغريبة التي انتشرت في الجزائر إقامة صلاة الجمعة على قاعة الطريق في الكثير من الأماكن، ولكن ما هالتي شخصياً ما يحدث في مسجد ابن باديس في العاصمة أثناء أداء الصلاة منه وعبره من كل الجزائريين الانصياع إلى ولي الأمر بحكم الشرع "هذا لا يجوز لك، ألا تعلم أن الفقه الإسلامي يحرم عليك

يوسف بلمهدي يذهب إلى أبعد من ذلك إذ لا يتقنى باستعمال اللغة الخشبية الدينية كزملائه، بل يريد فرض المضمون الديني القديم على الحاضر الجزائري حينما يصرح للإذاعة الجزائرية في لهجة تهديئة لا دبلوماسية فيها في موضوع زكاة عيد الفطر بالقول "إن لجنة الفتوى هي التي أقرت إجازة إخراج زكاة عيد الفطر مع بداية شهر رمضان، بناء على ما جاء في المذاهب الحنبلي والشافعي والحنفي، وأن الذي لديه رأي مخالف عليه أن يحتفظ به لنفسه ولا يخرج للحديث به في وسائل الإعلام أو في مواقع التواصل الاجتماعي".

وعلاوة على ضربه بحرية التعبير والبحث عرض الحائط فقد أضاف قائلاً، غير مكره بمقتضيات مواكبة العصر، وناكراً لقيم الثورة الجزائرية والجمهورية وثورة الابتسامه متوجها للمخالف طالبا منه وعبره من كل الجزائريين الانصياع إلى ولي الأمر بحكم الشرع "هذا لا يجوز لك، ألا تعلم أن الفقه الإسلامي يحرم عليك

## أخبار مضللة عن كورونا تستغل الدين وتستحضر نظرية المؤامرة

ووفق ما يشرح حنفي، وكما هو الحال في مناطق أخرى، لا يركز خطاب "المؤامرة" على الدين فحسب، بل تغذيه أيضاً المشاعر الوطنية المبالغ بها والوصم الاجتماعي والقوالب النمطية العنصرية.

السرديات الدينية هي من عوارض ممارسات تذرعت عمداً بالدين لإضفاء شرعية على ممارسات سياسية

وحسب حنفي، أمام تقشفي الوباء، تفاعلت "نظريات المؤامرة"، منها الإدعاء أن الفايروس "سلاح بيولوجي أميركي لشن حرب اقتصادية على الصين"، أو اعتبار بعض المسلمين أن "الفايروس لن يصيبهم" بسبب دينهم، عدا عن تصوير "اللاجئين السوريين بؤرة لانتشار المرض" في لبنان مثلاً.

ويقول حنفي إن نشر هذه الأخبار ينطلق من اعتبارات عدة أبرزها "الشعور بالعجز في مواجهة الواقع، فلا نعرف كيف نفسر أمراً ما علمياً أو لا نريد الاعتراف بهزيمة في معركة ما".

ويضيف "لعبت بعض وسائل الإعلام الاجتماعي دوراً كبيراً خلق حالة من الهلع الجماعي في زمن كورونا المستجد.

وفيما كان النظام الصحي يربح تحت ضغط التزايد السريع للمصابين، تداول مستخدمون على مواقع التواصل الاجتماعي تصريحات منسوباً لرئيس الوزراء جوزيبي كونتي يقول فيه "انتهت حلول الأرض والأمر متروك للسماء"، بما يوحي أن البلد انهار أمام الأزمة، لكن التصريح لا أساس له من الصحة.

وتداول الآلاف آخرون مقطعاً مصوراً على أنه يظهر إيطاليين يجتمعون في ساحة واحدة للانتحار الجماعي بعد فقدان السيطرة على تقشفي الفايروس، لكن تبين بعد التدقيق أن الفيديو المنشور كذبا تحت عنوان "الإيطاليون ينتحرون" ملقط قبل أشهر من ظهور الفايروس ويصور تظاهرة ضد حزب الرابطة اليميني المتطرف.

وفق الأستاذة في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية التابعة لجامعة لندن دينا مطر، ليست "نظرية المؤامرة" ذات الطابع الديني، ظاهرة تقتصر على منطقة دون أخرى. وتوضح "لا يجب أن نفكر ذلك على أنه لغة استثنائية السرديات في المنطقة وأماكن أخرى هي "من عوارض ممارسات تذرعت عمداً بالدين لإضفاء شرعية على ممارسات سياسية".

وتقول "طالما استُخدم الدين خطاباً سياسياً، ليس في الشرق الأوسط فحسب ولكن في الغرب أيضاً".

الفايروس، أو شائعات اجتماعية ودينية تتعلق به. وشكل قادة سياسيون في بعض الدول مصدراً للأخبار المضللة.

ومن مقاطع الفيديو والصور المتداولة التي دقت بها خدمة تقصي صحة الأخبار في فرانس برس تعليقاتي وتدوينات تتوقع انهيار دول في الغرب بسبب عجزها عن مواجهة تقشفي فايروس كورونا المستجد. وشكلت إيطاليا التي اتجهت إليها أنظار العالم بعدما تقشفي فيها الوباء، مادة دسمة للأخبار الكاذبة المستندة إلى خيال خصب.



استخدام الدين كخطاب سياسي

لو كالة فرانس برس "الدين هو مصدر أساسي للتضامن الاجتماعي الذي يلعب دوراً أساسياً في مقاومة الوضع النفسي الصعب الذي نواجهه في الحجر الصحي". ويضيف "في منطقتنا، يمكن للدين أن يكون في حالة تنافر مع المعلومات الصحية والطبية".

«انهيار» الغرب

في أنحاء العالم، تمحورت الأخبار الكاذبة حول معلومات طبية وعلمية خاطئة، أو نظريات مؤامرة حول نشأة

انتشار فايروس كورونا في المنطقة العربية والعالم سمح بظهور الكثير من التعبيرات والأخبار المضللة التي تستحضر نظرية المؤامرة وتتوقع انهيار الغرب وانتصار الإسلام، وهي تعبيرات تعكس انكفاء الناس إلى أساطيرهم وقناعاتهم الثقافية، وتمثل أيضاً أعراضاً للتذرع بالدين لإضفاء الشرعية على ممارسات سياسية معينة.

بيروت - مع تقشفي وباء كوفيد - 19، غرقت مواقع التواصل الاجتماعي بسيل من الأخبار المضللة، مع تركيز بالغة العربية على انهيار حضارة الغرب وإقبال على اعتناق الإسلام، ما يعكس وفق محللين، حجم القلق في التعامل مع أزمة مخيفة وغير مسبوقة.

ويقول البروفيسور نيبيل دجاني المتخصص في دراسة دور الإعلام في المجتمع خصوصاً اللبناني والعربي، لو كالة فرانس برس، "في أوقات الأزمات والصراعات التي لا يمكن تفسيرها، يعود الناس إلى أساطيرهم وقناعاتهم الثقافية لفهم ما يجري". ويوضح الأستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت "اللافت أن هذا الأمر يحدث في كل مكان وليس فقط في العالم الإسلامي".

نظرية المؤامرة

وتداول الآلاف من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي باللغة العربية منذ شهر فبراير الماضي مقاطع مصورة وأخباراً كاذبة، بينها شريط فيديو قيل